(شرابنل)
شاهـــد علـــى مرور بغداد في زمن أســـود

سعيد فرحان

كيف يعيش الكائن في بغداد اليوم؟ كيف يفكر؟ كيف يقضي يومه؟ والمرآة كيف تعيش هذا الزمن؟
بأي لون من الألوان يمكن رسم خريطة لبغداد اليوم ؟
كتاب الروائية إليزابيث هورم " شرابنيل" هو محاولة لرسم صورة للمدينة من خلال عيني امرأة قضت سنتين من حياتها في بغداد بين عامي ٢٠٠٣- ٢٠٠٤ وهي ترافق زوجها الذي يعمل في المدينة. الكتاب يصف حياة السيدة في هذا العالم الذي أُلقيت فيه من صيف عام ٢٠٠٣ حتى صيف عام ٢٠٠٤, وهو كتاب مكتوب بلغة محايدة، تصف العالم الخارجي من نافذة السيارة أو من خلال عدسة آلة التصوير، دون أن يتدخل بمسار الأحداث ولا أن يضع تعليقات عليها، إنما يكتفي بالوصف والتساؤل.
نتعرف على كلمة "شرابنل" في الصفحة ١٧٤ من الكتاب. وهي قذيفة شظايا، عندما تنفجر تتسطح عناقيدها بفعل قوة الإنفجار، كل قطعة من نثار القذيفة لها نتوءات وأضلاع ذات حواف قاطعة. مساحة انتشارها تتجاوز بضع مئات من الأمتار " وهي تدور بشكل عشوائي تماما، بعكس الرصاصة التي تتبع، في الأقل، مسارا محددا، ولذلك فهي تلوذ داخل المنزل كلما سمعت انفجارا قريبا".
العنوان الجانبي للكتاب هو " على هامش بغداد" وكأن الكتابة تؤكد إنعدام إمكانية التعرف على هذه المدينة، والدخول الفعلي في دوّامة أحداثها، بينما تظل ترقب من مشارف بيتها تيار الحياة يعصف بها.
قبل هذا الكتاب، نشرت إليزابيث هورم أربع روايات بالفرنسية هي على التوالي:
"الحلقة"١٩٩٤ التي حازت ثلاث جوائز وترجمت إلى الألمانية. العنوان يشير إلى أسم الشارع الذي يحيط بالمدينة التي تدور فيها أحداث الرواية والذي يشبه في تكوينه حلقة أو حزاما دائريا يحيط بالمدينة. " الكونغو- المحيط"١٩٩٦، وهو أسم سكك الحديد التي تربط العاصمة برازافيل بالمحيط، "الخيط الأسباني "١٩٩٨، " ترنيمة البحّار٢٠٠٢".
كتاباتها تختلط فيها الوقائع اليومية بالخيال الروائي، نثرها خصب، محايد، الشعرية فيه دفينة، لا تطفو إلا حين ينساب النثر ويتدفق. تحوّل هورم تجربتها المعاشة إلى تراجيديا مشوبة بالغرابة وشعور بالاضطهاد عميق. شخوصها يعانون صعوبة في التأقلم مع المحيط وكأنهم يتركون الحياة بمشيئتها القاسية تقودهم حيث تشاء. ويمكن إلقاء نظرة على المدن التي عاشت فيها لفهم مصادر المادة الأولية التي تتمحور حولها كتاباتها: دمشق التي تعلمت فيها العربية، القاهرة، بغداد، موسكو، براغ...
كتابها الذي صدر هذه الأيام، ليس رواية بالمعنى الحرفي للكلمة وإن أمكن اعتباره كذلك، فالشخصية الرئيسية فيه هي امرأة جاءت لبغداد بعد الحرب مباشرة لترافق زوجها، تتعرف على مقتطفات من العالم الخارجي الذي يحيط بها، وتصف حياتها يوما بيوم. والعمل ليس ريبورتاجا وثائقيا، رغم أنه يرسم مقتطفات صورة أمينة محايدة لبغداد. وهو ليس بيوميات، رغم أن الكتاب يوثّق بشكل يومي حياة امرأة تحت وطأة حصار العنف. الكتاب هو توليفة من كل هذه الجوانب يربطها خيط روائي. فالروائية التي تجيد فن القص ببراعة، أصبحت الآن بطل رواياتها، سجينة في هذا الدور الذي لا تتقبل أحداث المدينة دورا غيره. فهي تصف يومها في البيت، تنتظر عودة زوجها. صدى الحياة الخارجية يدخل عبر المذياع، عبر النوافذ المغلقة، عبر حديقة الدار التي يرعاها حدائقي بغدادي ماهر، عبر الخادمة التي تحمل معها، حين تدخل، أصداء الشارع وردّ فعله. شخوص يبدون وكأنهم في حالة حصار دائمة بين جدران البيت، حيث الخروج يعني أحيانا التنزه في غابة للموت.
الروائية التي تصف نفسها في هذا المشهد، تحتفظ بنظرة محايدة. تضع كاميراتها في مكان محدد وسط الديكور وتتركها تُسجّل ساعات اليوم. أحيانا يتسنى لها الخروج: تحضر حفلة موسيقية، أو تزور آثار بابل وطاق كسرى، أو تذهب للعشاء مع زوجها عند عائلة عراقية، وهي في هذا الخروج تحمل كاميراتها معها، بالمعنى الفعلي (فهي تمارس التصوير وتحمل آلة التصوير معها) وبالمعنى الأستعاري (ما تسجلّه العين من مشاهد وأخبار). وحتى حين تترك البيت وتغامر بالخروج، فهو خروج تحيطه حالة حصار أيضا، فالخطر لا يمكن توقعه في مدينة صارت ساحة لتجربة عنف مريعة. ولكن الكاميرا تعود إلى الديكور الطبيعي: البيت.
الخيط الروائي سرعان ما يتوضح: امرأة حبيسة بيتها، تختار البقاء بشجاعة إلى جانب الرجل الذي تحب، وهي تحاول بحيادية تامة أن تتعرف على ما يجري في هذا البلد وتنقله بالحيادية ذاتها، وهو إنجاز لا يجيده إلا الروائي الماهر.
يبدأ الكتاب بتسجيل مشهد امرأة (هي) تنتظر الطائرة الصغيرة التي ستقلها إلى بغداد لرؤية زوجها (هو) الذي افترقت عنه منذ خمسة أشهر عشية الحرب، وهاهي تحلق فوق المدينة التي يخفي أسمها تأريخا سحريا" بغداد". وينتهي الكتاب بأرض بغداد، بالحديث مع الحدائقي الذي أصطحب ولديه معه: (لكي يتعلما المهنة. هذا ما قاله لها في يوم سابق: " على أية حال، لا يمكنهم الذهاب للمدرسة في مثل هذه الظروف، وإذن من الأفضل أن يتعلما مراعاة النبات، ينبغي التفكير بالمستقبل، أليس كذلك مدام؟ ذلك أن البشر يتلاشون، ولكن النباتات، تستمر بالنمو خلال هذا الوقت، وسنحتاج دائما إنساناً يرعاها"). وبين هذين المشهدين، تظل (هي) سجينة البيت. وهذا هو مدار حياتها اليومي. تُنشيء مختبرا للتصوير الفوتوغرافي في المنزل وتقضي ساعات وأياماً في الغرفة المظلمة، تطبع صورها التي إلتقطتها لكل ما وقعت عيناها عليه: الغرف، الحديقة، سطح المنزل، الآثار التي تزورها. الصور تبدو وكأنها إلتُقِطت من دون تفكير أو موقف مَسبق، فهي تبدو وكأنها خالية من أي حياة، حتى صورها التي تلتقطها لنفسها أمام المرآة تبدو (هي) وكأنها تريد أن تختفي من الصورة. الصورة الوحيدة التي نرى فيها حضورا بشريا هي لأربعة صبيان سابحين على ضفاف دجلة. وهي أيضا المرة الأولى التي تتمكن فيها (هي) من عبور دجلة بقارب وأن تتمشى في شارع ضيق في سوق بغداد القديم: " أربعة صبيان يدلكون أجسامهم بالصابون، فخورين بأجسادهم الضامرة ذات العضلات التي تغطيها رغوة الصابون. أجسادهم تلمع تحت الشمس. لاحظوا آلة التصوير ووقفوا في وضعية صورة، ثم غطسوا في الماء. الرغوة تدحرجت مع التيار واختفت بسرعة. يدخلان(هي وهو) في حيّ مجهول، مندهشين بممارسة ما كانوا يظنونه مستحيلا: المشي في شارع".
الكتاب يتطور بهذه الصفة التسجيلية المحايدة، وما ظنّه القاريء تسجيلا لحياة امرأة حبيسة بيتها، سرعان ما يحلّ محله شريط تسجيلي لحياة المدينة والبلد بأكمله. شذرات الحياة الخارجية سرعان ما تدخل صفحات الكتاب عبر أمسية موسيقية في البيت، أوفي حفلة عشاء للأصدقاء والمعارف، يحضرها عراقيون وأوربيون. في مثل هذه المناسبات تستكشف الكاميرا علامات المدينة من خلال تصوير لتصرّف أحد الضيوف، أو عبر تسجيلها حديثاً عابراً، أو عبر سماع خبر وفاة انسان تعرفه. وهي في كل هذه الأحوال تتجنب التعليق على تلك الأحداث وتكتفي بتسجيلها بالكلمات. الأحداث المتسارعة يأتي صداها لا عبر وسائل الإعلام، إنما عبر حديث الخادمة والحدائقي والأصدقاء والمعارف، و(هي) تكتفي بنقلها وتطرح بين حين وآخر أسئلة لا تجيب عليها، إنما تتركها معلقة مثلها مثل مصير المدينة وساكنيها. هذه الدقة بنقل مادة الحياة بحيادية تستحق الإطراء حقا. فالكتاب الذي يسترسل مثل أغنية حزينة، لا يبغي تحويل أهوال الحياة إلى مادة روائية متخيلة، إنما يجهد بتسجيل مقتطفاتها عبر الكاميرا وعبر الناس، تغربلها وتضعها لصق بعضها مثل كولاج متعدد المصادر. لا تستطرد الكاتبة ولا تُثقل الأحداث بتعليقات أو آراء، إنما تحاول نقلها بالدقة ذاتها وبأختصار لغوي شديد. جملها قصيرة، بسيطة، مصاغة بعناية، ليس فيها أي نوع من أنواع المجّانية، بل إن ما يسودها هو الدقة والحرص على أختيار الكلمة المناسبة. ورغم حيادية الكاتبة وتجنبها أي نوع من أنواع الخطاب، فهي تنجح في رسم صورة أمينة وحيّة. لذا فإن كتابها يشكلّ في النهاية أغنية حب للإنسان رغم كل الظروف التي تحاول مسخ إنسانيته.

جيل ... هنا الديمقراطية

ليست جديدة دعوى الأجيال في الحياة الثقافية العراقية، وأسطورة جيل الستينيات والسبعينيات وما تلاها معروفة ربما للجميع، على تعدد المواقف من هذه الأجيال. ولكن الكل يجمع على ظواهر ومحددات لازمت ظهور كل جيل منها. وتوفرت لي شخصياً معاصرة إرهاصات ظهور جيل الثمانينيات من الشعراء والقصاصين والروائيين. ومن ثم الحضور والاشتراك بملابسات ظهور جيل التسعينيات.
فكل جيل من هؤلاء تحكمت به ظروفه السياسية والاجتماعية والشرط التاريخي العام، وارتبطت بكل جيل منهم قر اءة سياسية للواقع والكتابة ، وارتبطت بكل مجموعة منهم لازمة اجتماعية ما، ومع إدراكي للمقدمات والشروط التي حكمت هذا التحقيب، الا أنني لم أتوفر على قناعة تامة بالمحدد الزمني الذي قام عليه كل جيل من هذه الأجيال. ولكنني أتفهم في الوقت عينه كيف تمت صياغة القيم والمحددات من أفق لاحق فيما يتعلق بانجازات كل جيل . وكيف أسقطت على مهيمنات وتمايزات كتابات كل جيل منهم صفة المشاريع الأدبية بوصفها منجزات لم تكن لتتحقق لولا ركائز أساسية في كل جيل .
واتفق الجميع على المحدد الزمني بوصفه العلامة الأساسية للفصل بين جيل وآخر ،وهو ما احتُكِم إليه في الغالب عند اللجوء إلى معنى دقيقٍ للتحقيب .بسبب الاختلاف حول انجازات مبتكرة أو مستلة من تجارب أخرى .
في ضوء هذه المقدمات يمكن الكلام بعد مرور سنتين على الاحتلال عن جيل جديد آخر لا نزعم أننا نبشر به بقدر ما نحاول أن نلفت النظرِ إلى بوادر ومقدمات وعلامات ستكشف لاحقاً عن جيل جديد سنشير إليه بجيل التاسع من نيسان ، ولا تنطوي التسمية على أي حكم سلبي أو موقف أخلاقي أو وطني، وإنما هو ملمح زمني ينفتح على تسميات أخرى مثل جيل ما بعد صدام، وربما يراه البعض الآخر جيل التحرير، لعدم امكانية اطلاق تسمية جيل ما بعد صدام أو التحرير عليهم، بفهم أن عددا كبيرا من هؤلاء كان معروفاً وعلى نطاق ضيق أيام الصنم، ونشر بعضهم كتباً صغيرة على الطريقة المحلية العراقية، وشارك بنشاط هنا وهناك، معلنين عن أنفسهم عبر ما ينشرون من كتابات إبان ذاك .
فهذا الجيل لا يؤمن تماماً بأن الكتابة اضطرار، وإنما اختيار يخضع للمزاج والوضع النفسي ،فهو لا يقيم لهذا الموقف وزنا .وكل شيء بعد سقوط الصنم جائز ومشروع. وغالبا ما تأتي الكتابة ملحقاً في آخر اهتمامات هؤلاء المعاصرة التي قدمت صياغة متغيرة للكتابة والحياة والجيل معاً.
فمعظم هؤلاء مراسلون تلفزيونيون وإذاعيون وناطقون اعلاميون، ومقدمو برامج، ومحللون في مجالات شتى، ويكتبون كل ثلاثة أو اربعة اشهر مقالا أو نصاً شعرياً ، ويحضرون تجمعات الشعراء، ويسهمون في الملتقيات من باب الحضور الاجتماعي ، وبعضهم اسس صحفاً صغيرة سريعة، وبشر بجيلهم الذي يخلو من المركبات والتعقيدات، بفهم ان اهتمام هذا الجيل لا ينصب على النص وحده وإنما على الحياة والملابس والديمقراطية وحقوق الانسان، والتعامل مع كل الثوابت بوصفها متغيرات، وبعد كل ذلك يجيء النص الذي يكتب في وقت الفراغ، ولا يهتم هذا النص النادر بمشكلات كبرى، وانما يتحدث عن الحب في زمن الموت، وعن الزهور بعدما امتلأ البلد بالمزابل. نص لا يلتفت إلى الماضي، ليس بوصف القطيعة، ونظر هذه الكتابة إلى الأمام دائماً، دون الخوض فيِ الكلام عن القطيعة وما شابه ذلك ، فهذا كلام يُضحك هذا الجيل، وعلى ندرة ما ينشره هؤلاء فإنه يتوفر لنا أن نؤشر بعض ملامح كتابتهم التي تنحاز لزمن متغير، وقاموسه يتنامى بدءاً من القاموس السياسي السائد من مثل :الشفافية إلى الموزائيك، وضرورة التوازن، وتحرير العقل العراقي من تراث طويل تضمن الولاء المطلق للمركز، وتهويل قيمة الهامش، وتلاقح الملل ، وغيرها مما استجد على سطح حياتنا العراقية إلى قاموسهم الماضي الذي يكشف عن وضع اجتماعي مسكون بعقد التهميش والشعور بعدم الأهمية.فماضيهم هو الذي يقدم الصورة الظاهرة لدعواتهم وكتابتهم، فقد عمل معظم هؤلاء في محلات ومكاتب ومطاعم وعانوا كثيرا من عدم النشر وعقدة الاضطهاد تسير فهمهم حتى بعد التغيير، وتخيل بعضهم ان صمته إبان النظام المباد بسبب مواقف سياسية، لكنه اكتشف خطأ هذا الموقف بعد التغيير، وبعد ان وجد نفسه تائها في فضاء اللارقابة العبثي الآن، ليضع يده على حقيقة ان صمته كان بسبب مشكلات أخرى غير الخوف من النظام وعيونه.
وكانت هذه الطامة هي التي دفعته إلى مواجهة حقائق كبرى تتعلق بالكتابة وأهمية المعرفة، والقراءة والتوفر على المعلومة والفهم، وتأكد من أهمية وجود ولو قدر يسير من المعرفة والقدرة على التعلم وكيفية الفهم وأهمية الخبرة الانسانية والحس الاعتيادي لا الاستثنائي.
بالطبع لا يقصد من هذا الوصف ان ما يكتبه هذا الجيل خارج على السياق الأدبي العراقي، لكنه ينحاز للفوضى التي تسمح بظهور كتابة تبدو انها عاجزة عن الكشف عن مواهب ملفتة ، أو تقدم تجربة مغايرة، لكنها تجربة مأهولة بالمفارقة، مفارقة حياتنا التي حلمت بالتغيير دون أن تطاله، تعتمد هذه الكتابة اليأس الذي يلف تفاصيل الحياة والفكر لدينا، وصدمتنا من فشل مخططاتنا للمستقبل الذي حلمنا به ، وقد حلمنا بمستقبل عادل قبل الدخول إلى هرج العائد والخارج والواقف بين بين.
يستثمر ممثلو هذا الجيل كل هذه الاعتبارات، والوضع الاستثنائي الذي نعيشه ليصرخ وسط الانفجارات ومسلسل الذبح والاغتيال والتصفيات الجسدية : هنا الديمقراطية !

قاسم محمد عباس
qassm950@yahoo.com

بغداديات

عباس العامري

١
نهر المدينة

نهر دجلة
ليس حكيم الزمان
ذلك لقب توأمه الفرات
❖❖❖
لقد خلع جبة الدرويش
ما ان اعطى ظهره لجسر التراتيل
بين قباب الاعظمية والكاظمية
انه يسترق النظر الان
ببنطال من الجينز ، وقميص مشجر
لسيقان الصبايا المخطوبات
وهن يعبرنه صوب شارع النهر
❖❖❖
بعد قليل سينحني
ليبلغ اعزاصدقائه
أصحاب مطاعم السمك المسكوف
قرب ابي نواس
وكالعادة
سيمنحهم البني
والكطان المكتنز
ويسلمونه قناني البيرة
غير انه اليوم سيطلب منهم قرنفلة ايضاً
❖❖❖
قبل ان يصل الى محطته الأخيرة
سيطوح بحقيبة الحاوي
ممزقاً ثيابه كلها
وعارياً سوف ينساب
ليطرق ابواب جنة الجنوب
❖❖❖
اتركوا هذا المراهق الابدي
يفعل ما يشاء
شرط ان لا تغسل مياهه
جيوب دشاديشنا
من دبق التوت البري

٢
الشناشيل

محرار من الصنوبر
علمتنا تهجي البهجة بصمت
فتحنا شبابيكها لتصعد حمامة الامنيات
نحو الله
وإذا بالشناشيل المقابلة
تصطادها
بضفيرة وضحكة
وبريق خاتم في يد
تمسك بكتاب البكالوريا

٣
النخيل

شجر وصديق وفي
اشبعناه حجارة
فقبل وجناتنا بالرطب
وبمهرجان من الظلال الملونة
ازدردنا ثماره
وهي على هيئة الهة
فلم يزعل
وغدا
حين نرحل على خشبة حدباء
لن يصحبنا غير سعفتين من فسائله
لا احد اكرم من النخيل
لا احد البتة

٤
لوحة غير سريالية

جعفر ابو التمن
يفتتح مدينة العاب للأطفال
وبصحبته الاب انستاس ماري الكرملي
❖❖❖
شهرزاد
تقرأ في "قاعة حوار"
قصة مسير السبايا الى الشام
❖❖❖
على طاولة مقهى
في مدينة الثورة
يلعب عبد الكريم قاسم الدومينو
مع فيصل الثاني
❖❖❖
طه باقر وتمثال كوديا
يناقشان هموم المتحف العراقي
وحسما لاشكاليات الحوسمة المتربصة
يقترحان نصب زوجين
من الثيران المجنحة
مكان عربة الـ HuMMER الأمريكية

٥
ليست خاتمة

بغداد
رغوة الغواية
وشارة المقدس
خفها العباسي المزركش
يساقط حبات الكهرمان
فليتقطه كل السيارة
درك وعيارون...
جندرمه بلحى شقراء وخناقون
..
جوار يدبرن من مقاصيرهن
شؤون الامبراطوريات
وخلفاء يطاردون بكلابهم السلوقية
بول الغمامة
وهم يشتكون من السفلس
شبانة بحراب طويلة ، عسس
قناصل ، مظليون ، وجنود مارينز...
بغداد
يا هودج الحضارات الكبير
كل بنيك –وانا اخرهم –
مؤمنون يتبعهم الغاوون
لكنهم ما هاموا
الا بفتى اسمه كرخ
وبالانثى المزدهاة رصافة

في الملاجة : شعر ونحت وموسيقى وناس يغيرون مفهوم الفن

عواد ناصر

كم ضقت بمهرجانات الشعر والفن التي تقيمها الحكومات(المربد العراقي أسوأها) بدءا من المغرب حتى عمان. مهرجانات للتواطؤ السياسي وإلحاق العملية، برمتها، بأجهزة الإعلام الرسمية.
واللعبة مكشوفة، معروفة.
لكن في مهرجان"السنديان" في الملاجة(محافظة طرطوس) اختلف الأمر كثيرا. إذ تبدى الأمر جوهريا احتفاء بالفن، شعرا ونحتا وموسيقى، بعيدا عن أي حضور رسمي حتى للمجاملة. فالصف الأول خال من الوزير والمحافظ ورجل المخابرات، بل خصص للضيوف المشاركين.
المنظمون من أبناء الضيعة المتطوعين، عمال وموظفون بذلوا جهدا كبيرا خارج ساعات عملهم، والتمويل ذاتي مئة بالمئة مع بعض التبرعات من مؤسسات مدنية وشركات خاصة وأشخاص ميسورين وغير ميسورين(أحدهم تبرع بألفي ليرة سورية(ما يعادل أربعين دولارا!) وفي مقدمة المنظمين السيدة رشا عمران شجرة سنديان فتية تتحرك ناشرة الظل والضوء وهي تحمل هاتفها الجوال الذي لا يكف عن الرنين.
إنها السنة العاشرة للمهرجان وقد تراكمت الخبرات لدى المنظمين والجمهور معا، حين نلحظ هذا النجاح المتمثل بحضور أكثر من ثلاثة آلاف شخص يستمعون بشغف ويتفاعلون بتوقيت ذكي مع ضربة القصيدة وهزة العود وفلوت الجاز، على مدى يومين من المهرجان، بعد أن توقفوا مليا عند المعرض النحتي الذي ضم أعمالا مهمة لفنانين سوريين مرموقين.
قرأ الشعراء على مدار أمسيتين في يومين متعاقبين وهم من الأردن طاهر رياض ومن البحرين حمدة خميس ومن الإمارات نجوم الغانم ومن سوريا عادل محمود وعابد اسماعيل ومن لبنان عناية جابر ومن العراق عواد ناصر.
تلونت تجارب الشعراء تعبيرا وأداء غير أن المحصلة هي أن العلاقة بالجمهور غيرت ، عندي في الأقل، مفهوما اعتقدته راسخا، حول نخبوية القصيدة ولاجدوى من إلقاء الشعر أمام جمهور عربي تشل الأمية الأبجدية نصف جسده وعقله.
اختلف الأمر في الملاجة وبدا الجمهور يضيف للقصيدة انطباعا آخر حتى أثناء صمته المسموع.
شخصيا قرأت قصيدة من المستحيل قراءتها في أي مدينة عربية!
فرقة الجاز الشابة تألقت ونشرت في مساء الملاجة الندي أنغاما جديدة على أذان الكثيرين، بينما أشاع الفنان اللبناني شربل روحانا جوا من موسيقى عوده وصوته ما يحفظ للموسيقى العربية أصالتها وحداثتها معا.
وتكريما للشاعر علي الجندي قرأ الفنانان حلا عمران وجهاد سعد مختارات من قصائده، ولا ننسى فنانين من أهل الملاجة تجاوروا من مختلف الأعمار ليؤدوا أغنيات ملاجية خاصة كتبها الشاعر الراحل، ابن الملاجة، محمد عمران، الذي يعود له الفضل في المبادرة لإقامة هذا المهرجان.
في الملاجة رددت مع نفسي: لم يزل الفن بخير!